العنوان، والوقت، والاعتذار

ثلاث كلمات ... العنوان ، والوقت ، والاعتذار ، مرتبطة ببعضها ارتباطاً أكيداً ، فبعض الناس يُعرف عنه أنه إذا أعطاكَ عنواناً سواءً بالهاتف أو وجهاً لوجه ، فهو يعطيه لك صحيحاً من ناحية اسم الشارع ، ورقم المسكن ، أو المكتب ، واسم المنطقة ، ويزيد ، فيذكر لك أكثر علامة في طريقك إلى العنوان ، وأكثر من إشارة تنير لك الطريق ؛ ليهون عليك الطريق ، فكما هو ملموس في الوطن أنه لا يكتب اسم الشارع ، أو رقمه ، ويعلق في أوله ، ويعلق في آخر الشارع على اللوحة الزرقاء المعروفة ، والمكتوب عليها باللون الأبيض ...

كان هذا يحدث منذ الاستعمار الانجليزي ، أما الآن ، فالشوارع عارية من لافتات الأسماء ، أو الأرقام ، وأنت تصل بالمحاولة أكثر من مرة ، أو الحدس ، أو التخمين ... رغم أن الواجب على معطي العنوان أن يكون دقيقاً ؛ ليوفر المشقة على القادم ، وفي هذه الحالة إذا كان هذا سلوكه وواجبه الذي يشعر به ، فلابد أن يحترم الوقت كذلك ، وهي صفة انقرضت من أخلاق وسلوك المصريين ، فأي موعد ، ولو كان مع وزير ، لا بد أن يتأخر قرب الساعة ، والحجج كثيرة ...

مجرد أن يسمعك عبارة أن كاوتش العربة كذا ... أو أنه تائه منذ ساعة ، أو يذكرك بمسألة الزحام الشديد ، والكورنيش واقف ، والمحور

لا يتحرك ، والدائري لا أمل فيه ... إلخ ، وهو لا يدرى أن الإجابة بسيطة ، لا تحتاج إلى ذكاء ، فكلنا نعيش الاختناقات المرورية ، و نعرفها ، فلماذا لا ننزل قبل موعدنا بفارق ساعة زيادة عن ميعادنا تقديراً منا لاختناقات المرور ؟ وأخيراً يمكن أن يقول لك ببساطة : إنه يشعر بأنه آتٍ إلى بيته ، فلا داعٍ ، ولا حرج ، ولا ضرورة للسرعة و... و... و...

سيل من المبررات التي لا تنتهي ، ولا تكلف صاحبها شيئاً ، مجرد أن يسمعكَ أي واحد منها ، ويعتبر نفسه أنه أولاً : اعتذر لك ، وثانياً أنه أدَّى واجبه كاملاً ، وكأن الوقتَ لا قيمة له ، ولا معنى له ، بينما هو لو تلفت من حواليه ؛ ليتفكر قليلاً لأدرك أن الله سبحانه وتعالى لا يخلف موعداً ، فالشمس تشرق في موعدها ، وترحل في موعدها ، والقمر يضيء في أيامه ومواعيده ، والأرض تدور في مكانها حول الشمس لا تتقدم ولا تتأخر ، وأعمار الخلق تنتهي في مواعيدها المحسوبة ، ويأتي المواليد بقدر محسوب ، وتتعاقب الفصول مضبوطة واضحة .... إلخ .

إذن لماذا الإنسان – وهو صنيعة الله وخلقه – لا يحافظ ، ولا يقدر قيمة وقت الآخرين !!! ولا يحترم مواعيد الآخرين ، إذ ربما تكون لهم ارتباطات أو مقابلات بعد موعدك مباشرةً ، والأدهى أنه مع وجود وسيلة مثل الموبايل ، فلا أحد يعتذر مبكراً عن التأخير !!! إنما بكل إصرار وجسارة حين يقترب من مكان الموعد يطلبك ؛ ليقول لك إنه عند أول

الشارع ، ثم يطلبك مرة ثانية ؛ ليعلمك أنه أمام العمارة السكنية ، أو المكتب ، ويطلبك مرة ثالثة ؛ ليؤكد أنه سيضع يده على الجرس !!!

ضارباً عرض الحائط بأنه تأخر أكثر من ساعة ، وكان الأجدر به أن يكلمك قبل هذه الساعة ؛ ليقول إن أمامه ساعة على الأقل ؛ ليصل إليك ، فتلتفت أنت إلى عمل شيءٍ آخر ، أو إجراء اتصال هاتفي ، أو الذهاب لقضاء طلب عاجل ، أو ... أو ... ، ولكنه للأسف ... لا يهتم بالاعتذار المبكر ، ولتذهب الأصول ، والأعراف ، والأخلاق إلى الجحيم ... إنما فقط عندما يقترب يطلبك ثلاث مرات ، كأنه طفل يلهو بلعبة الهاتف المحمول !!!

وبهذا هو لا يحترم عقليتك ، ولا يحترم الوقت الذي أهدره ، وينسى كذلك أن يسألك إن كان وجوده المتأخر هذا يناسبك ، أم أنك مرتبط بضيف آخر سيأتي ؟ أو أن عليك الخروج مثلاً ؛ لارتباطك بموعد مهم ؟ يسأل هذه الأسئلة ليعطيك الإحساس بأنه نادم ، وقلق بسبب تأخره ... وهكذا نرى أن إعطاء العنوان الصحيح ، واحترام وقت الآخر ، وضرورة الاعتذار المبكر عن التأخير ... ثلاث كلمات مرتبطة كلها ببعضها ... لا أظن أنه من العسير أن يستوعبها العقل المصري .

***

أحلام اليقظة

يؤكد الأطباء والمفكرون أن أحلام اليقظة ظاهرة صحية ، بمعنى أنك تعيش معها عشرات الدقائق ، تتخيل نفسك فيما تشتهي وتتمنى أن تكون ... فأنت في حلم اليقظة الرئيس ، وليس المرءوس ، أو أنت الوزير ، أو المدير ، أو القاضي ... إلخ .

إذن أحلام اليقظة تشكل متنفساً للإنسان منا ، نتبادل في الحلم الأدوار ، ونعيش لحظات نتمناها ، وقد يمتد حلم اليقظة إلى أكثر من تلك الدقائق ؛ لنفرغ معها كل المكتوم والمؤجل لنا من رغبات ، وعندما نصحو من حلم اليقظة ، ونعود إلى واقعنا نشعر بنوع كبير من الارتياح والرضا ؛ لأننا عشنا كما نشتهي ونرغب ، حتى لو كانت دقائق أو لحظات .

إذن ... هي فعلاً ظاهرة صحية مريحة ، نفرغ فيها ما بداخلنا من شحنة الشوق ، أو الغضب ، أو الرفض ، أو الرغبة ، إلا إن كل أمر من أمور الحياة يصبح ذا فائدة ومنفعة ، إذا كان في حدود المعدل المعقول ، أما إذا أصبح –لا قدر الله– حالة مرضية تصل إلى مستوى حد الإدمان ، والتعود الضار ، وغير الصحي على ممارسة أحلام اليقظة باستمرار ...

هنا يصبح حلم اليقظة بلا معنى ؛ إذ إن فائدة هذا النوع من الأحلام أنه يحفز صاحبه ليحقق في الواقع الفعلي ما يحلم به ؛ لأن وظيفة حلم اليقظة أنه يشكل لك صورة مجسمة داخل عقلك لما تتمنى أن تكون عليه ، وما تتمنى تحقيقه ، فإذا ما حلمت أنك المدير الفعلي ، فربما يكون غرضك أن تحقق العدالة في الدخول والمرتبات والحوافز ، ربما كان غرضك أن تفتح بابك للعاملين ورغباتهم وشكواهم ، ربما كان غرضك أن تدير العمل بأسلوب جديد ، تراه أجدى ، وأسرع ... إلى آخر هذه الرؤى ، والمطالب التي ترى أنك ستحققها إذا ما أصبحت المدير .

هذه المعاني كلها التي تحلم بها ضرورية ؛ ليستمر المرء في العمل ؛ لأنها بمثابة الأمل الذي لا يمكن أن نحيا دونه ، ولكن ما يجب أن يكون نصب أعيننا هو ألا تتحول الأحلام إلى مرض تُدمن على ممارسته ، بمعنى أن تتوقف عند الحلم وفقط ... تجد فيه تحقيقاً لما تشتهي ، وتتمنى ، ثم تتوقف ، وترضى بهذا القدر ... هنا وعند هذه النقطة بالتحديد ، أنت ترتكب الخطأ الأكبر ، فبدلاً من أن تسعى وتكون شخصاً إيجابياً قوياً ... تعمل على تحقيق الحلم إلى واقع فعلي حقيقي – حتى لو حلمت بأن تكون رئيس جمهورية – ، نراك على العكس تماماً ... تقف عند حدود الحلم ، وتتلذذ به ، وترى نفسك فيما تحب أن تراها فيه ، وتكتفي بهذا .

هنا بالذات ، وعند هذه النقطة بالتحديد ، لا تكون حالماً بحلم يقظة ، ولكنك تصبح مريضاً في حاجة إلى علاج أكيد ، بل تصبح أقرب ما تكون

إلى المرضى العقليين من أمثال المصابين بمرض الشيزوفرنيا مثلاً ، وهو مرض التوهم والتخيل لوقائع وأحداث لا أثر لها في الحقيقة ، أو تكون مثل مرضى انفصام الشخصية ، وهو الشخص الذي يعيش حياتين اثنتين ، الأولى الحقيقية الواقعة ، والثانية التي يتقمصها في أحلام يقظته .

إن كل ناجح أو مشهور في أي وظيفة أو مجال ، ومن أي مستوى اجتماعي كان يحلم أولاً ، إلا إنه لم يكتفِ بالحلم وفقط ، وإنما اتخذ الخطوات العملية الأكيدة ، والفعلية لتحقيق هذا الحلم ... هكذا كان العظماء ، ومَن غيروا التاريخ ، وهكذا كان أصحاب النجاحات من المخترعين ، والمكتشفين ، وكذلك كان الفنانون والموسيقيون ... إلخ .

إن الخوف كل الخوف أن تقف فقط عند حدود الحلم ، وتستمتع به ؛ لأنه يُخرج الطاقة الموجودة داخلك ، ولكن عليك اتخاذ الخطوات الإيجابية والمحسوبة ؛ للوصول إلى تحقيق حلمك ، والطريق ليس مستحيلاً ، وليس مغلقاً ، ولا مجهولاً ، فهناك دائماً الدورات التدريبية التعليمية في كثير من المراكز التي تعلمنا طريقة ومهارة التفكير السليم ، التي إذا توصلنا إليها ، سيليها خطوة تحقيق ما فكرنا فيه ... وهناك دورات تدريبية نتعلم منها كيف نكون مخترعين ، وكيف نضيف ؛ لنكون مبتكرين ، وهناك دورات في اليابان مثلاً تعلم كيف تأخذ أي ابتكار أو اختراع من أي منتج ، وتصنع منه صورة طبق الأصل أصغر حجماً ، وأقل تكلفة بفارق كبير ، وبذلك يسهل تداول المنتج ويتكاثر الطلب عليه ...

هذه النوعية من الدورات ، إما تُؤخذ ونحن طلاب في المدارس أو المعاهد أو الجامعة ، أو تؤخذ بعد ذلك ، وعلى أساس مهم جداً تقوم عليه حضارة الغرب وتقدمها ، وهي أنه على المرء أن يتعلم طوال حياته ما دام حياً ؛ فهو يتعلم من هذه الدورات التي تقدمها المراكز ، أو بعض الصحف القومية أو الخاصة ، هذه الدورات أصبحت في الغرب المتقدم أسلوب حياة ، وليس فترة للتعلم وتنتهي ؛ لأنه كما أشرت ... التعلم يبقى هدفاً دائماً لك سواءً كنت وزيراً ، أو أصغر موظف في أي شركة ، أو مؤسسة أو ... أو ...

إن هذه الدورات تؤكد ، وتنمي ما تعلمته في المدرسة أو المعهد أو الجامعة ، وتضيف إليه من عندك ، فيكون الاكتشاف أو الاختراع ، ببساطة أيضاً استعن بالكتب ، وتردد على المكتبات ، ففيها ما يوصلك إلى تحقيق رغباتك مهما كانت .

إن قراءة التاريخ مثلاً ... فيه من الأمثلة ، والسياسات ، والطرق ما يحقق لك ما تريده ... فقط اقرأ ، وتعلم ، وتدرب ما دمتَ حياً ، إلى أن تصل إلى تحقيق حلم يقظتك .

***

في بيتنا معمل

من أجمل الذكريات التي دائماً تشدنا هي ذكريات الطفولة ... إذا استعرض الانسان منا العديد والعديد من ذكرياته ، مهما كانت سعيدة ، فدائماً ما تتصدر ذكريات الطفولة مخيلتنا ، نستنشق عبيرها ، ونشم رائحتها ، ونتمنى أمنية مستحيلة ... أن تعود لنا أيام طفولتنا ، ولكن لماذا هذا الشعور والإحساس هو دائماً المسيطر علينا ؟ لماذا لا تحتل المواقف والتجارب السعيدة الأخرى التي عرفناها محل ذكريات الطفولة ؟

والجواب بسيط جداً ... لأن ذكريات الطفولة ترتبط بفكرة التعلم ، وفكرة الأحلام الكبيرة ، فحين تعلمنا المدرسة أو البيت أن نضع البصلة في برطمان مملوء ماءً ، ثم ننتظر يومان أو ثلاثة ؛ لتبدأ عملية الإنبات ، وتتمدد الجذور في البرطمان ... نراها ونلاحظها ، ثم بعد يومين آخرين ... نرى بداية نمو البصلة ، واستطالتها متجهة إلى الشمس ... نرقب هذا بفرحة لا تعادلها أي فرحة ؛ لأننا نتعلم كيف نزرع ، وكيف نغير المياه ، وكيف ننقل البرطمان وفيه البصلة سعياً وراء أشعة الشمس .

هذه الخطوات التي كنا نأتي بها في طفولتنا تبعاً لإرشادات المعلمة أو المعلم ، وبرعاية أمهاتنا وآبائنا ... كانت تزرع الفرحة والدهشة داخل قلوبنا ، ثم نأخذ الزرعة ، ونذهب بها إلى المدرسة ، حيث نضعها على بسطة شباك الفصل مع عشرات من البرطمانات لتلاميذ آخرين ... هل

يوجد منا مَن ينسى هذه الفرحة ، وتلك الأيام ... ؟ وهل ننسى قطعة القطن الواسعة المبللة ، التي كنا نضعها على طبق ونرش عليها حبات الحلبة ، فتنبت بعد يوم واحد ؟

ولا أنسى زميلة لي ، وهي تسأل مدرستنا إن كان من الممكن لها أن تطحن قرص الفيتامين الذي تبتلعه في الصباح من يد أمها ، وترشه على القطنة المبللة ؛ لتكبر وتعلو حبات الحلبة ، حتى تصل إلى طول السبورة ؟ هذا التساؤل من زميلتي هو بالتحديد ما أريد أن ألفت النظر إليه ... بمعنى أن عمل مثل هذه التجارب المنزلية التي كانت قديماً على بساطتها هي بمثابة معمل في المنزل ينتج عنه الاختراع والإضافة .

ولما كان التسابق والتنافس بيننا كتلاميذ قائم ؛ فأرادت زميلتي الصغيرة أن تتميز في كون حبوبها من الحلبة ستنمو ، حتى تصل إلى ارتفاع السبورة ، التي كنا نعتبرها في ذلك الوقت والعمر من أعلى الارتفاعات في دنيانا !!! إنه كان الحلم لتلميذة صغيرة ، ولقد عرفنا أن أعظم الاختراعات تأتي أولاً من الأحلام ، ثم يأتي بعد ذلك دور الكثير من الملاحظة والتجربة ، ثم إعادة التجربة ... إلخ .

أيضاً أذكر تربية دودة القز ، وما كنا نتبارى فيه ؛ لنحصل على أكبر قدر من الشرنقات ، ونحن نحلم بأننا سنصبح أغنى الناس من فكرة تربية دودة القز ... ولما كبرنا قليلاً ، وكانت المدارس تزخر بمثل هذه التجارب ، حاولنا بعد ذلك القيام بتشريح الضفادع التي كنا نمسك بها في

أحواض في المدرسة ، ومنها تعلمنا الكثير والكثير على يد معلمينا ... وإن كان أكثر ما لفت أنظارنا أن الضفدع لا تصرخ ، ولا تتألم ، ولا تئن من استخدامنا للأمواس المعقمة ، التي سبق غليها في ماء ساخن ... الضفادع لا تصرخ ، رغم أن صوتها يكون عالياً وعريضاً ، وهي في الماء في بعض أوقات آخر النهار !!! كل هذا ، ولم يكن عمرنا قد تخطى الحادية عشرة عاماً .

في تلك الأيام كانت لنا أحلامنا الكثيرة ، والسبب هو وجود فكرة المعمل البدائي والبسيط في ركن في بيوتنا ، أو في مدارسنا ، وهو عمل مهم ؛ لأنه بمثابة النواة الأولى التي تخلق الحلم داخلنا ، ثم تأتي محاولة التجريب والإضافة ؛ فنتخذ الخطوات فيما بعد لتحقيقها على أرض الواقع ... وقد كانت حيطان مدرستنا تتسع لأعمالنا ... أعمال صغيرة ، ولكنها تنمي فكرة التجريب التي ينتج عنها الاختراعات .

أين منا هذه الأيام ؟ طبيعي أن الأمور اختلفت ، ووسائل التسلية تغيرت ، وأصبح الكمبيوتر الذي يستحوذ حتى على الكبار قبل الصغار ، وصحيح أن الإنترنت توفر المعلومات الواسعة والكثيرة ، إلا إن المعمل الذي يحدث فيه التجارب الأولية والساذجة في ركن من البيت هو الأكثر فاعلية على خلق الشاب المخترع .

إن فكرة التجريب البسيطة ، والوقوع في الخطأ حتى نصل إلى الصواب لن تزول أو تنمحي من دنيانا ؛ لأنها أساس لأي اختراع أو إضافة في أي مجال ، سواء مجال الدواء ، أو مجال التطبيب ، أو مجال الإنتاج ... إلخ .

وأعتقد أن العقل الجمعي المصري سيستوعب هذا المعنى المنطقي ، وما وراءه من فائدة أكيده ، ولن يجعل أي نوع من البثور تشوش على فهمه واستيعابه ؛ لنساعد أطفالنا شباب الغد على أن يقدموا للبشرية أشياء ومعانٍ وأفكار تخفف من قسوة الواقع ، أو من احتياجات إنسان اليوم والغد .

***

obeikandl.com

تناقض الأطباء

الحمد لله أن مصر لديها الكثيرون ممن يمتهنون مهنة الطب ، وهي مهنة ... كان قديماً يُقال على مَن يعمل بها أنه الحكيم ، وهذه الكلمة ليست كثيرة على مَن يمتهن هذه المهنة الإنسانية أولاً وقبل كل شيء ، والدارسون للطب موجودون في مصرنا ... يأتون من شمالها وجنوبها وشرقها وغربها ... يأتون من البلاد والأقاليم والنجوع والكفور ، ومنهم مَن يكون من قلب القاهرة كـأبناء لآباء وضعوهم على أول الطريق ؛ ليجتهدوا ويتفوَّقوا في تخفيف آلام البشرية ... مثلهم مثل باقي الدارسين .

ومع كل الاعتراف بهدفهم النبيل والإنساني ، فإنهم يسيئون – ولا أقول عن قصد– ، ولكن عن عدم مبالاة ... وبسبب جريهم جري الوحوش على لقمة العيش التي يبغونها أحلى من العسل – وهذا حق لهم – ، ولكن بشرط ألا يضروا بالآخرين المضطرين إلى التعامل معهم واللجوء إليهم !!!

فأول ما أراه من بثور على عقولهم تسيء للمهنة ، وتقلل من عظمتها ... هي عياداتهم المختلفة سواء لطبيب القاهرة أو الأقاليم !!! لكن لماذا أحدد العيادات ؟ لأنه المكان المخصص لأصحاب العلل والأمراض ، فإذا ذهب المريض إلى طبيب عظام ، فالعيادة التي ينتظر فيها لا يوجد فيها كرسي واحد ، أو كنبة صغيرة ، أو عريضة لها مواصفات صحية صحيحة لاستقبال معذب أي مريض !!!

فإذا كنت تشكو من آلام الظهر ، فلا يمكن إلا أن يكون الكرسي الذي تجلس عليه يزيد هذه الآلام ! والأريكة دوماً ساقطة ، بمعنى أنها غير مشدودة ، تجلس عليها ؛ لتغوص داخلها ، ولا تستطيع القيام إلا بمساعدة مريض آخر ، أو مرافق يشدك ! وإن كانت امرأة حامل في شهرها الأخير فتغوص أيضاً بحملها ، وتطلب مساعدة أقرب امرأة إليها إن استطاعت أن تساعدها ، وقِسْ على هذا في باقي الأمراض لأصحاب العذابات في هذه الأرض .

كيف يغيب عن الطبيب وهو المطلوب منه تطبيب الألم ، ألا تكون عيادته تمثل أي مقاييس صحية في المقاعد أو الموائد ؟ كيف يغيب عن عقله أن مَن يأتيه لا يأتي إلا مضطراً من هول الألم ، فأين يجلس ليستريح بالساعات في انتظار دوره المأمول ؟

رحم الله الدكتور محمد فياض طبيب النساء المعروف ، الذي كانت عيادته على كورنيش النيل بجوار فندق شِبرد ، كان –رحمة الله عليه– يجدد كراسي وأرائك العيادة سنوياً ... بل أكثر من هذا كان يضع على المائدة التي تتوسط العيادة الواسعة اثنين من "الترامس" الضخمة المملوءة بالشاي والقهوة لمن يريد دون مقابل ، كان –رحمه الله– نموذجاً نادر الوجود ، لقد عاش على أرض مصر بمعنى أنه مارس حياته ، مثل باقي الأطباء أجمعين ، إلا إنه لم ينسَ أنَّ مَن تأتي إليه دائماً ما تكون مضطرة ، فكان – رحمه الله – يكرم المعذبات والمنتظرات والآملات فيه بعد الله سبحانه وتعالى .

لماذا يغيب هذا الفهم عن السواد الأعظم من الأطباء من أولاد القاهرة ، أو الأقاليم ؟ أيضاً في حالة ذهابك إلى طبيب عيون بمعنى أنك تستسلم له ولطريقة علاجه في أغلى ما تملك وهو البصر ، ولكن تفاجأ ... وللأسف الشديد ، وأنت الذي تعاني من ضعف الإبصار ، أو عدم وضوح الرؤية ، أو تحتاج إلى عملية تصحيح بصر ، أو ... أو ... إذ تفاجأ بأن البطاقة أو "الروشتة" أو الكارت الذي يقدمه لك الطبيب مكتوب بخط وطباعة لا تقرأ من شدة صغر الكلمات والأرقام ، وبذلك يزيد من عذابك ، وأنت تخطئ على الأقل ثلاث مرات وأنت تطلب رقم هاتفه أو تتعرف على عنوانه !!!

هل غاب عن هذا الطبيب أنك أصلاً صاحب معاناة في الإبصار ؛ فيتحتم أن تكون الأرقام واضحة ، والفرق مقروء وملحوظ بين الرقم 2 ، والرقم 3 ، وبين الرقم 6، والرقم 9... هل في معرفة هذا معضلة ؟!! وفي أحيانٍ أخرى يعطيك بطاقة مكتوبة بالانجليزية ليزيد من صعوبة رؤيتك لها ... ألم يكن الأجدر أن تكون البطاقة بوجهين ... واحد باللغة العربية الواضحة الحروف والأرقام ، والآخر بالانجليزية بنفس المواصفات الواضحة .

إن هذا عيب لا يستهان به في الأغلبية الساحقة من أطبائنا المصريين ، إن المطلوب من الشخصية عالية التعليم ذات المكانة المرموقة أن تراعي أبسط القواعد الإنسانية لإراحة المعذبين الآتين إليه اضطراراً ، ولن أتكلم

عن كتابة أسماء الأدوية في "الروشتة" على فرض أن السادة الصيادلة قد اعتادوا على خطوطهم غير المقروءة ، ولو أن بعضهم يعجز عن القراءة ، فيتصل به هاتفياً ليعرف منه صحة الاسم ، وغالباً ما ينسى الطبيب أن يحدد مقدار المليجرام في الأقراص أو الكبسولات التي حددها ، فيعاود الصيدلي الاتصال به !

ولا يمكن أن ينبهك الطبيب أن تكرر الدواء بعد انتهاء الزجاجة مثلاً ... إنما يتركك للأقدار ... إما استرحت ، وإما استمر التعب ، فتعاود الذهاب إليه ، وتنتظر بالساعات تلو الساعات في العيادة التي لا تصلح لبقاء إنسان له حق في حياة كريمة أن ينتظر فيها ... إلى أن يأتيك الفرج ، فتدخل للطبيب ، ومع ذلك لا ترى على قسمات وجهه أي أثر للخجل لما قصر فيه ، ولا يحاول أن يقدم لك أي تعليمات قد نسي قولها ، مثل سؤاله عن أدوية أخرى تبتلعها قد تتعارض مع ما وصفه لك ... أو يمنع عنك أنواع طعام معينة ... وتخرج بنتيجة أكيدة أن الطبيب لا يحترمك ، ولا يقدر أوجاعك ، إنما هو يتعامل معك كأنه ماكينة مبرمجة بدون أي معنى للرحمة ؛ فتشعر بالخجل من المجيء إليه ، وتحدث نفسك : لو كنت استعضت عن المجيء إليه بمكالمة هاتفية ، ولكن الممرضة لن تمكنك من الوصول إليه بحجة أنه في الكشف ، والكشوفات تنتهي بعد منتصف الليل بكثير ، وعندما تصل إلى منتصف الليل تجد نفسك خجلاً ومتردداً في الاتصال بطبيبك ...

سؤال كثيراً ما يراودني ، أسأل فيه عن زوجات مشاهير الأطباء اللائي نجدهن في الأندية ، وعروض الأزياء ، وكل مناسبة جميلة : أين هؤلاء الزوجات من الإشراف ... ولو مرة في السنة ... على عيادات الأزواج ، ودورات المياه الموجودة فيها ؟ ... إشراف مرة واحدة في العام ...

الدكتور المعروف محمد فياض-رحمه الله- الذي ذكرته كإنسان يحترم ويقدر آلام أخيه الإنسان ، كانت له زوجة هي الفنانة الكبيرة هند رستم – رحمها الله – لم تكن تترك الصغيرة قبل الكبيرة في مسألة إشرافها على العيادة ، بل كانت تزور السيدات المرضى بنفسها وتطمئن عليهنَّ ، صحيح أن الفنانة هند رستم كانت سليلة أسرة عريقة ، فهل أعيد سلوكها الحميد إلى أنها ابنة باشا أصلاً ؟

ألم نقم بثورة لنعطي للفلاح وللعامل البسيط الحق في أن يكون طبيباً أو مهندساً أو محاسباً أو كاتباً أو مبدعاً ؟ ... إلخ .

ولكننا للأسف نجد اللامبالاة في سلوك الأطباء ، وإهمال مرضاهم وعدم إعطائهم العناية الكاملة ، فهل سيكون علينا أن نبحث عن أصل زوجة الطبيب قبل أن نلجأ إليه ؛ لنضمن أن يقدم لنا العناية الواجبة ؟ ... وبذلك نقتلع مفهوم المساواة والحق الواحد للجميع في الحياة التي يريدها ويتطلع إليها ؟!!

من ثلاثين سنة فقط ، وكنت في ذاك الوقت ليس لي الإدراك الواعي ... من ثلاثين سنة كنت لا أستوعب فكرة تحديد النسل بأبعادها المعروفة . بل كنت أتعجب من رؤيتي للكثير من الأجانب وهم يتزوجون ، ولكنهم يختارون عدم الإنجاب من الأصل ! والأكثر من ذلك أنه كان لي خال قد تزوج من أجنبية ، وحينما كانت تميل عليه إحدى القريبات في جلسة عائلية ؛ لتهمس في أذنه بقولها : "مش تخلف لك حتت عيل تربيه؟ " ، كان يرد عليها ضاحكاً بقوله : "أربي نفسي أولاً أفضل بكثير " ، ويضحك الجميع .

لم آخذ في ذاك الوقت كلامه على محمل الجد ... ولم أفكر فيه بعقلانية ، ولم أبحث عن أسبابه ، إنما كنت أعطي له أعذاراً من أفكاري أنا ، وأقربها أنني كنت أقول في نفسي "لعل الست الخواجاية زوجته لا تريد طفلاً يعوقها عن السفر والتجوال والتمتع بحياتها" ، فقد كان هذا الخال يعمل قبطاناً بحرياً يجوب البحار والمحيطات ، ويستريح في كل ميناء ، ويلتقط أنفاسه في كل بلد ، وكانت السيدة زوجته الأجنبية ترافقه في أغلب هذه الرحلات .

وتمر السنوات ، ربما ثلاثة عقود لأعرف ، وكأن الوعي سقط عليَّ فجأة بأن خالي هذا كان شديد الحكمة ، وكانت له نظرة بعيدة ... فالذي لا

شك فيه أن كوكبنا الذي نعيش فوقه قد اشتكى من كثرة أعدادنا ... ما خرجت من منزلي يوماً وفي أي ساعة من ساعات النهار أو الليل ، إلا وعايشت ورأيت يوم الحشر متجسداً أمامي ! أي عذاب هذا الذي أراه وأعايشه وأحسه يومياً ؟

ولا مفر من الخروج إما للعمل أو لقضاء الحوائج ، وهي كثيرة سواء كانت لي أو للآخرين ، وأغلبها لا يمكن الفرار منه ، بدءً من حضور دفن الأعزاء إلى حضور زفاف الحبيبات ، وما بينهما كثير ... كثير ... لا يحصى ... وكلما انتهيت من أداء واجب أو مصلحة تولد عنها ضرورة أداء أكثر من مصلحة مرتبطة بها ... مسألة وأمر لا ينتهي ، وليس له حدود ؛ لأشعر بالكبد والمعاناة النفسية والجسمانية الدائمة واليومية .

والأمثلة عديدة لا يمكن حصرها ، ومطلب الإنسان من أخيه الإنسان لا ينقضي بنزلة واحدة من البيت ، ولكن بنزلات متتابعة أو مفصولة عن بعضها ، ومع كل نزلة يتجدد مشهد القيامة ، ويوم الحشر أمام ناظري .

إن الله –سبحانه وتعالى– قد جعل يوم القيامة مرةً واحدةً ، وفي وقت واحد يسري على جميع خلقه ، وهذا من رحمته بنا عز وجل ، أما أن أري هذا اليوم في كل ساعة ، فهذا ما لا يطاق ...

ينعطف السائق بالعربة في طرق ودروب حديثة لم أرها من قبل ... مبانٍ وعمارات تقوم على قدم وساق في هذه الأحياء الحديثة ، لعلنا نهرب من الزحام ، فألمح في مدخل كل عمارة اكتملت أو تحت التشطيب امرأة

وحولها أربعة أطفال ، وتحمل على ذراعها طفلاً خامساً ، وتحمل داخلها طفلاً آخر يبدو من استدارة بطنها ...

امرأة هزيلة وأطفال امتزجوا بتراب الطرق ، لا أستطيع أن أتبين ملامحهم من كثرة الأوساخ على وجوههم وملابسهم ... وأستنتج أن هذه المرأة زوجة بواب العمارة ، وقد نزحت مع زوجها إلى القاهرة لتسكن حجرة في مدخل العمارة كما نعرف هذا جميعاً ...

أعداد من البشر تنزح يومياً إلى القاهرة ؛ لتتمسك بتلابيب أي عمل في القاهرة ، وهذا حق لهم لا شك في هذا ولا جدال فيه ، ولكن كيف نوقف هذا الزحف ، وكلمة زحف نفسها قليلة ، والأجدر أن نقولها : كيف نوقف هذا الطوفان من البشر الذي يأتي إلى القاهرة مع كل طلعة شمس؟

والمسألة ببساطة أن القرى المصرية قد أُهمِلَت وسقطت من حسابات أي حكومة من أكثر من قرن من الزمان ، ولو أن القرى والمحافظات لاقت أي اهتمامٍ معماري ، أو تعليمي أو ثقافي ، لما تلهف سكانها وأهلها إلى النزوح إلى القاهرة بهذا الهوس .

ولكن الواقع يؤكد أن المحافظات وقُراها لا تقدم أي وسائل ترغيبية لسكانها ، حتى لو كانت ضرورية للحياة من كهرباء ، ومياه نقية ، وصرف صحي ، وأندية ، ومدارس ، ومعاهد ، وحتى مصانع .

ولماذا لا يكون هناك جامعات أيضاً تضاهي جامعة القاهرة أو عين شمس ؟ إن الجامعة تقام في مكان واحد ، ويكون بداخلها أكثر من كلية ،

وأبناء المحافظة نفسها أو الإقليم لهم من الثراء العلمي ، والتنوع الفكري ، والمهارات ، والإضافات ، والإبداعات ، مما يجعلهم قادرين على شغل هذه الكليات المتعددة ، بل ويتخرج من تحت أيديهم العلماء والمفكرون ، ومَن سيضيفون للبشرية من وسائل وأسباب تهون الحياة ، وتجلب الصحة ...

والأمثلة كثيرة لو نظرنا إلى مدينة المنصورة ، وما فيها من مركز طبي هو في المستوى العالمي بكل المقاييس ، ويوصي العلماء والأطباء الغربيون بالتوجه إلى هذا المركز ، ويتعاونون علمياً معه ... إن الأقاليم تزخر بالكفاءات النادرة ، وإن طلاب ودارسي الأقاليم لا تلهيهم أضواء العاصمة ، وإنما يحرصون ويركزون على الدأب في التعليم الواعي الأكيد ، وكم من علماء وعظماء ، بل كلهم ، كلهم بلا استثناء أتوا من المحافظات من قُراها ونجوعها ، وقد أضافوا للعلم ، وبالتالي للبشرية الكثير .

وما أقصده وأؤكد عليه هو ضرورة وجود كل أنواع الكليات بما فيها الفنون الجميلة ، من الموسيقي والتمثيل و... و... حتى لا يزحف الطلاب مُكرهون إلى القاهرة ، وكأنه الحج الذي لابد منه لتهيئه مستقبلهم المأمول .

نحن نأخذ أمريكا قدوة في كل شيء ، ونقلدها تقليداً أعمى ، وكأن لا خيار لنا !! فلماذا لا نأخذ منهم فكرة أن كل مدينة عندهم فيها كل ما هو مطلوب ؛ لتسير عجلة الحياة ، لا فرق بين نيويورك ، وبين أي مدينة أو

ولاية أخرى من ناحية الخدمات والمصالح والجهات المختلفة التي تخدم المواطن الأمريكي .

ومن المهم أيضاً أن يكون لكل محافظة شبكة مواصلات تليق بالإنسان الذي له الحق في الحياة . إن سوء خدمات المحافظات وافتقارها إلى ألف باء وسائل العيش هو ما يجعل النزوح إلى القاهرة أمراً لابد منه .

لا أستطيع أن أعد كل ما ينقص المحافظات من مدارس ومستشفيات ومراكز طبية مشهود لها ، بل ومعاهد فنية وجامعات ، اللهم إلا في عدد محدود من المحافظات فقط ، حيث توجد بعض هذه الخدمات .

وأخيراً هل فهم هذه الحقائق أمر صعب ، أو في حكم المستحيل ؟ إن عدم استيعاب هذا هو البثور بعينها التي تشوش وتشوه العقل المصري .

***

obeikandl.com

عمر التخطيط

في أي عمل في مصر بدءً من أعمال تخطيط الشوارع والميادين ، أو بناء العمارات الشاهقة ، أو حتى بناء المدارس والجامعات ... إلخ ، يعوزنا ونفتقد دائماً إلى تحقيق التخطيط البعيد المدى لمستقبل آتٍ بعد مائة عام أو أكثر بكثير ، وقد استشعرت هذا من سفرٍ لي إلى الولايات المتحدة .

وكان هذا من أكثر من ثلاثين عاماً على وجه التحديد ، كنت في ولاية تكساس ، وهذه الولاية بمثابة صعيد أمريكا ، وكان الوقت حوالي العاشرة صباحاً ، وقد كنا في الصيف ، وبينما كنتُ أسير مع مجموعة من الأصدقاء ، إذ وجدتُ شيئاً ضخماً يشبه الماسورة ، وكان موضوعاً على الأرض ، فاقتربنا منه ، وهالني أكثر وأكثر ضخامته وارتفاعه ، لدرجة أنني وبعض الأصدقاء مشينا بداخله بسهولة ويسر وخرجنا من الجهة المقابلة ، ثم كررنا هذا الفعل أكثر من مرة ...

ثم نبهنا أحد الأصدقاء المصريين الذين معنا إلى وجود عمدة الولاية مع بعض الرجال بجوار عربة ليست ببعيدة عنا ، وفي لمح البصر قررنا أن نذهب إليه ؛ لنستفسر منه عن وجود هذه الماسورة الضخمة ، وقطع مشابهه لها تماماً موجودة في أماكن متفرقة ، وكانت المفاجأة بالنسبة لنا حين عرفنا منه أنها مواسير صرف صحي يجري تركيبها في المكان نفسه

الموضوعة فيه ، ولما أبدينا دهشتنا من اتساعها بدرجة أننا مررنا منها ، ولم نحنِ ظهورنا بالمرة !

وعرفنا من كلامه بالحرف الواحد أن المواسير بهذا الحجم ؛ لأنه من الوجهة العملية والعلمية ، فإن هذه المنطقة – التي تقفون فيها الآن – خلال مائة وخمسين عاماً ستكون بها كثافة سكانية عالية ، ولهذا هم يتحسبون في تخطيطهم إلى أكثر من مائتين عام قادمة !

طبعاً هذا الكلام كان جديداً على أذهاننا ؛ لأن فيه تقدير وحساب لمئتين سنة قادمة ! قارن ما رأيته بما يقام في مصر ، فعندنا البناء مثل المدرسة أو الجراجات أو العمارات لو احتسبت عشر سنوات قادمة ، فسيشعر القائمون عليها أنهم أنجزوا ، وأدوا ما عليهم ، بينما الحقيقة غير هذا تماماً ...

وإذا ضربنا مثلاً بالمساكن الشعبية التي أقيمت للشعب في القاهرة ، وفي معظم مداخل المحافظات الأخرى ، فسنجد أنها مبانٍ أشبه ما تكون بالصناديق الكرتون التي نضع فيها الأحذية عند الشراء ، فليس هناك أي تخطيط جمالي في البناء !

وإذا كان الهدف هو تقديم شقق رخيصة ، سواء للتمليك أو الإيجار ، فأين فن التخطيط المعماري ؟ إذ لا يشترط أن يكون المكان واسعاً ليكون جميلاً ، كما لا يشترط أن يكون المكان ثمنه غالٍ ؛ ليكون جميلاً ! الجمال

معنى يمكن إظهاره في أصغر المباني وأرخص الأزياء ، وهكذا في كل منتج ... الجمال شيء ، والغلاء شيء آخر .

في البداية ... عمارات المساكن الشعبية ملاصقة لبعضها بشكل معيب ... وعرض الشارع ضيق كأنه حارة ! والغرف خانقة من الضيق ، ولا توجد فكرة "الصندرة " في الأسقف ، وكانت معروفة قديماً ، حيث يضع فيها الساكن كل ما يريد تخزينه من قطع أثاث ، أو مراتب ، أو مكتب صغير ، أو غسالة قديمة ، أو حقيبة ، أو ... أو.... إلخ ... إلى أن يتخلص منها بالبيع مثلاً .

إن المرأة التي تسكن في المساكن الشعبية لها نفس احتياجات المرأة التي تسكن في الزمالك أو جاردن سيتي ، فلابد لها من "صندرة " ، أو أكثر ... تضع فيها أشياءها .

"والصندرة "هي المعادل تقريباً للكلمة المعروفة "البلاكار" ، أو الدولاب الموجود في الحائط ، إلا إن "الصندرة" موجودة في أعلى الحائط للتخزين فقط ، أضف إلى هذا ضيق "البلكونة" ، فرغم صغرها المعيب ، إلا إنها واحدة فقط في الواجهة ، وليس هناك أخرى في ظهر الشقة مما يجعل ربة المنزل تقوم بنشر الغسيل في بلكونة الواجهة مما يتنافى مع الذوق بل والحياء!

أتساءل بدهشة لماذا خطط المهندسون لهذه العمارات السكنية الشعبية ؟ ولم يضعوا في اعتبارهم أن سيدات المساكن الشعبية لهن نفس احتياجات

سيدات الزمالك وجاردن سيتي في الأساسيات ، هل فهم هذا يعتبر معجزة أو يتطلب جهد جهيد حتى يكون مفهوماً ؟

ومصر مليئة بالمهندسين الفطاحل ، وأكثر من هذا ، ففكرة الهندسة والقدرة عليها تجري في دمائنا ، وموجودة في جينات المصريين ، ألم نبنِ المعجزة التي تُسمَّى الهرم ؟ التي يتلهف ويتوافد على رؤيتها العالم أجمع ؟ إذن ، نحن لا نعدم القدرة ، ولكننا بالتأكيد ينقصنا تماماً فكرة التخطيط الجميل والتخطيط المعماري بعيد المدى .

ويحضرني هنا مثال حدث لي عندما تزوجتْ ابنتي من شاب يكبرها بسنتين أو ثلاث ، وسافروا إلى الولايات المتحدة ، حيث يعمل ، وبالطبع لأنهما في مقتبل الحياة ، وفي العشرينيات من العمر فكان لهما أقل دخل ، وكان سكنهما فيما يشبه المساكن الشعبية عندنا ، ولكن الفارق مهول ، فلقد كان للزوجين الشابين المبتدئين كل وسائل الإعاشة الكريمة في مساحة لا تزيد عن 70 :80 متر مربع ، مع وجود أكثر من "صندرة" ، وأكثر من "بلكونة" ، والمسافة التي تفصل بينهما وبين الجار لا تقل عن أربعة عشر متراً ، والأكثر من هذا أنه مع هذه المساكن الاقتصادية للشباب أمثالهم ، وعلى بعد أمتار منهم كان هناك الفيلات والعمارات ، بل والقصور التي بها "تراك" أي "مسار" ، تجري فيه الخيل المملوكة لأصحاب الفيلات والقصور .

إلا إنه من ناحية الشكل الخارجي لم يكن هناك فارق في ألوان الطلاء الخارجي بين القصور والمنازل الاقتصادية الصغيرة ، ولا في الممرات المزروعة ، ولا في السلالم المريحة ، فلم أشعر بلحظة أسف أو حسرة من رؤيتي الدائمة للفيلات والقصور والشقق الواسعة ، وكل هذا يعود إلى فكرة التخطيط الصحيح والجميل والبعيد المدى جداً جداً .

وقبل البدء في التخطيط هناك ... يكون في عقول مهندسيهم ومنفذيهم الوعي والتقدير بأن الزوجين المبتدئين لهما نفس المطالب الضرورية للأزواج والزوجات الأثرياء في الأساسيات الحياتية ، من مساحة آدمية معقولة ، وشرفات ضرورية من أمام المسكن وخلفه ، ودورة مياه إنسانية ، ومطبخ يصلح لربة البيت ، والذي تقضي فيه أكثر من نصف عمرها .

إن فكرة المساكن الاقتصادية للشباب فكرة جميلة ، إلا إن تنفيذها في مصر كان وما زال قبيحاً ، وكأن الإحساس بإنسانية الآخرين وحقوقهم في حياة كريمة أمر صعب بدرجة لا يستوعبها العقل المصري الذي هَندسَ إحدى عجائب الدنيا السبع ، التي منها الأهرامات .

***

المسكوت عنه كثير

قد يكون هذا العنوان أكبر مما أقصده ، فما أقصده بسيط جداً ، وبديهي للغاية ، فمن الطبيعي مع انتشار مفهوم "الإنترفيو" لأي طالب وظيفة مهما صغرت ، فالآن إذا أردت أن تعمل في وظيفة ساعي في أي وزارة أو مؤسسة حكومية ، أو في أي عمل خاص ، فلابد أن يقام لك "إنترفيو" بمعنى مقابلة مع مَن سيختارك ، ومَن ستتعامل معه ، ومن ستقوم على خدمة إدارته ، أو شركته أو ... أو ... سواء كنت موظفاً أو ساعياً ، كما أشرت .

تدخل المكان حين يأتي دورك ، وتتعرض لأسئلة قد تكون قصيرة ، وقد تطول دون أن يشرح لك الشخص الجالس أو الشخصان أو الثلاثة المطلوب منك بالتحديد بالنسبة للوظيفة المرجوة ، ورغم ذلك يعرفون من إجابتك مدى استعدادك للعمل ، ويمكن أن يعرفوا بالطبع ما يمكن أن تضيفه للعمل من أفكار تفيد الإدارة أو المؤسسة مثلاً ، وما تراه من نقص ستسعى إلى استبداله بالإيجابيات ...

كل هذا يستطيع أن يفهمه المسئول من الحوار مع طالب الوظيفة دون أن يكون كما ذكرت قد شرح المطلوب منه ؛ حتى يساعده ويحفزه لشرح وجهة نظرة وتنشيطها ، ولكن ما يحدث في الواقع هو نقيض وعكس هذا ، إذ يفاجأ المتقدم بأسئلة على قلتها مبهمة وغامضة ؛ مما يسبب ارتباكاً

للمتقدم ، فلو عرف المطلوب منه ، فلابد وأنه سيظهر على الفور مدى قبوله واستعداده للتعاون من عدمه .

أما أن يلقي به في غياهب أسئلة مبهمة ، هذا يعد في واقعه نوع من المناورة فقط ، وكأن هذه المقابلات تقام شكلياً فقط ، بينما المتفق على تعيينه شخص محدد ، ربما مجاملة لرئيس العمل ، أو لعله قريب لأحد الثلاثة الذين يجرون المقابلة المزعومة ، وهذا بالطبع مما يجعل المقابلة غير ذات جدوى أصلاً ، وبالتالي يؤثر هذا على نفسية المتقدم ، ويجعله يحجم عن التعرض لفكرة المقابلة في المستقبل .

إذ لا يجب أن يكون المسكوت عنه في مثل هذه المقابلات أساساً لتحقيق وتفعيل "الإنترفيو " ؛ لأن الحوار ، وخاصة إذا كان على أرضية مشتركة شرحها القائمون بالمقابلة للمتقدم ... عندها سيكون الكلام مثمراً ذا فائدة لصاحب العمل نفسه ، وخبرة جيدة للمتقدم للوظيفة .

يتحقق هذا بسبب الشرح الأولي للممتحنين ، وإظهار رغبتهم وتشجيعهم للمتقدم بأن يبوح بما يراه بالنسبة للعمل سواء كان سياسة عامة للمكان أو سلوكاً جديداً يكتسب من دورات ، أو حتى بعثات أو ... أو ... فمهما يبدو من أن شباب اليوم غير مكترثين لأمور كثيرة ، إلا إنهم يحملون من داخلهم رؤية وحلماً واضحين عن العمل ، وطريقة العطاء فيه ، والكثير من الأفكار الجديدة والحديثة في رأسه .

وهذا طبيعي وبديهي ؛ لأن الشباب عقول ونفوس تواقة إلى العطاء ، وإلى البذل ، وإلى الابتكار والتجديد . نقطة أخيرة أود أن لا تفوتني ، وهي في حالة إذا ما فاز المتقدم فعلاً بالوظيفة ، فإنهم وللأسف يسكتون جميعاً ، ولا يعلنون له بوضوح وصراحة أي رقم أو شيء يتعلق براتبه ! وينتهي اللقاء بنوع من الضبابية حول هذه النقطة ! ويضرب المتقدم الأخماس في الأسداس وهو يتكهن بقدر راتبه .

ناهيك عن أن هذا السلوك من الكبار فيه من القسوة الأكيدة الشيء الكثير ، إلا إنه فوق هذا يزيد من حيرة المتقدم ، ويوقعه في دوامة من الحيرة والغموض ، وكان الأجدر والأحق أن يقولوها ببساطة ووضوح ... راتبك سيكون كذا ، ولك مزايا ستكون كذا ، ويعددونها بشفافية كاملة ... مثل هذه المقابلات التي تحدث للمتقدمين في شرخ شبابهم ، وهم في بداية الطريق تؤثر بشدة وعمق وتحفر داخلهم إما الهمة مع الرحمة ، أو القسوة واللامبالاة ؛ لأنه كما نعرف جميعاً أن فاقد الشيء لا يعطيه ، ففي يوم ليس ببعيد سيكون هذا الشاب المتقدم في موقع الذين يسألون ، ولحظتها سيتعامل بالأسلوب نفسه الذي عاشه ؛ لأنه لم يعرف غيره ؛ فرفقاً بنفوس الشباب .

***